سورية أهدت العالم زرعاً وقمحاً أغلى من كنوز الأرض

الزراعة أهم نشاط مارسه الإنسان منذ القدم وكفل له البقاء، وحصل من خلالها على الغذاء والثمار من مختلف أنواع النباتات، وسعى جاهداً عبر مختلف العصور التاريخية إلى تطويرها وتحديثها واستخدام أحدث الطرق فيها كي يزيد من إنتاج المحاصيل الزراعية ويحسّن من جودتها. فالزراعة من الأشياء الأساسية التي لا يستطيع الانسان العيش بدونها لأنها المصدر الأساسي لتأمين كافة متطلباته واحتياجاته والواجب عليه باستمرار العمل على تحسين وسائل وأدوات ممارستها وتحسين الظروف التي تساعد على الإنتاج الزراعي وفق أسس علمية وخبرات تراكمية.

تشكل الزراعة أولى الدلائل على معالجة واستثمار الإنسان لوسطه الطبيعي، وبحث الإنسان عن الاستمرارية، هو السبب الطبيعي الذي دفعه إلى اللجوء إلى الزراعة والتهجين.

المعطيات العلمية ودراسة خصائص المناخ المعتدل ونوعيات التربة التي تشكل البيئة الأولى لنمو النباتات وأساس الزراعة كلها، وكمية المياه المتوفرة تؤكد امتلاك سورية للعناصر الرئيسية لقيام الاستيطان البشري، وممارسة النشاط الزراعي، وبناء الحضارة الإنسانية منذ آلاف السنين، ففي سورية نجد المياه العذبة دائمة الجريان والمياه الجوفية الوفيرة والتربة اللحقية الخصبة والمتجددة، والسطح المنبسط هادئ الانحدار، وأودية ذات ميزة تضاريسية قليلة الخوانق توفر أريحية في العمل الزراعي، إلى جانب التضاريس ذات الانحدارات والجوانب القاسية والمناخ المناسب لقيام زراعة لأكثر من موسم.

البقايا الأثرية النباتية توثّق غنى سورية بالنباتات البرية، ففي سورية اكتشف في موقع أم التلال أقدم بقايا نباتية محفوظة بشكل كامل في منطقة الشرق الأوسط والعالم، وتؤرّخ بأكثر من 40 ألف عام وتعتبر من الحالات النادرة جداً والاستثنائية في العالم لبقايا أثرية نباتية. كذلك تؤكد المعطيات الأثرية وبقايا النباتات والبذور المتفحمة، أن الثورة الزراعية في العالم حصلت في المنطقة الواقعة بين حوض الفرات شمالاً مروراً بحوضة دمشق، وأن بدايات الزراعة ظهرت في منطقة الجزيرة السورية لأول مرة في العالم في زمن مبكر جداً يؤرّخ بحوالي 10500 سنة خلت.

وتشكل الاكتشافات الأثرية في موقع تل المريبط الأثري السوري أهم الوثائق في العالم والمتعلقة بمعرفة ابتكار الزراعة، وممارسة النشاطات الزراعية، وتدجين الحيوانات. وعلى أرض الجزيرة السورية اكتشف في موقع تل المريبط، وموقع تل العبر، أقدم قرى زراعية معروفة في العالم، مورست فيها زراعة الشعير والقمح وحيد الحبة المهجّن من القمح البري وحيد الحبة منذ حوالي 8500 عام قبل الميلاد، وابتكرت أدوات زراعية وحجرات داخلية صغيرة استخدمت في تخزين الحبوب، وفي موقع تل حالولة الأثري اكتشفت سنابل قمح يعود تاريخها إلى ثمانية آلاف عام قبل الميلاد.

وفي سورية في تل المريبط هجن للمرة الأولى في العالم نبات الشيلم، وفي موقع أبو هريرة هجّن للمرة الأولى في العالم نبات بر القفقاس، واكتشف في الموقع أكثر من 500 بذرة تعود لأكثر من 150 نوعاً من أنواع النباتات الصالحة للطعام، وبذور القمح، ونوى بذور وثمار الفستق، والجوز، وتمر الميس (الدردار)، والمشمش، ونبات البرقوق بزهرته البيضاء، وبذور الذرة، والعدس، واللوبياء، والكمون البرية، والعنب البري. وفي قرية تل أسود في منطقة دمشق هجّن للمرة الأولى في العالم الشعير ذو الصفوف الستة، والكتان المهجّن. واكتشف في المريبط أدوات حجرية استخدمت في معظمها بالحصاد، لكنها استخدمت في قطع زروع ليست جافة، إنما لا تزال خضراء قبل نضجها مباشرة، لأن الحبوب التي تقطف خضراء هكذا ثم تجفف، تحتفظ بقدرتها الإنتاجية، وتستخدم كبذور للزراعة. وهذا يؤكد أن ظهور الزراعة في الجزيرة السورية سبق ظهورها في أريحا الأغوار، وفي تل أسود في حوض دمشق، وغيرها من قرى العصر النطوفي التي عرفت الزراعة بعد عام 8000 ق.م. وفي سورية ظهرت بؤر الاقتصاد الزراعي الأقدم في العالم في قرية تل أسود في منطقة دمشق منذ الألف التاسع قبل الميلاد.

والسوريون لم يقدموا للعالم فقط زراعة القمح والشعير، بل علموا الحضارات الأخرى كيفية استخدام أرض السهل الفيضي في الزراعة خارج مواسم الفيضان، وأساليب وفنون الزراعة المروية، وآلية وتقنية جر وسحب وتصريف المياه. ففي الجزيرة السورية اكتشف في موقع بقرص وتل السن أهم القرى السكنية البدائية والمؤرخة بنحو 7000 عام قبل الميلاد والتي مورست فيها بدايات الزراعة المروية في العالم.

وفي سورية اكتشف المنجل الأول والمحراث الأول، وابتكر السوريون العديد من الرّحى والمدقّات من البازلت المنخرب الخشن، والكلس لطحن الحبوب، والتي اكتشف العديد منها في موقع أبي هريرة في الرقة وتؤرخ بحوالي 7000 عام قبل الميلاد، وبعضها محفوظ في متحف حلب. والأهم من ذلك اكتشاف جنين القمح أو الرشيم وفوائده الغذائية والطبية، وهو عنصر النمو في حبة القمح، ويتوضّع بين الأندوسبيرم وطبقات النخالة في الاتجاه المعاكس للشق الداخلي للحبة، وهو أغنى أجزاء القمح بالفيتامينات والمعادن والأحماض النووية.

وفي مملكة ماري (موقع تل الحريري الأثري) ومملكة أوجاريت (موقع رأس الشمرة الأثري) دوّنت الكثير من النصوص المسمارية المقطعية الأكاديّة، والنصوص المسمارية الأبجدية الأوغاريتية المتخصصة بالزراعة، وأسماء النباتات ومراحل نموها وتكاثرها وقوامها وأزهارها، وخصائص النباتات وطرق استخلاص العلاجات والأدوية منها، وتصنيف النباتات إلى مجموعات مختلفة، ووجود مصطلحات كثيرة تدل على فهم عميق لخواص التربة وتضاريسها وملوحتها وتركيبها الفيزيائي، واتجاه الشمس وحركة الريح وأثرهما على نمو النباتات.

وتؤكد المصادر الكتابية المكتشفة في مختلف المواقع الأثرية السورية، إدراك الانسان في سورية منذ ابتكار نظم الكتابة، أن وجود أو غياب نباتات معينة يتبعه وجود أو غياب أنواع أخرى، وأنه يمكن الاستدلال على خصائص التربة بما يستوطنها من أنواع. وبمجرد فهم عملية الري وتفعيلها ازدهرت الزراعة وتعدّدت المحاصيل الزراعية كماً ونوعاً.

سورية بالأدلة المادية الأثرية أدركت قبل أي مكان آخر في هذا العالم أهمية الزراعة ودورها المركزي في تطوّر الحضارة الإنسانية، وإدراك الانسان لضرورة تعمير الأرض وعدم تركها حتى تبور، وأن الزراعة والتحضير سمة حضاريّة وإنسانيّة معاً. فقدرة الإنسان على إنتاج المحاصيل الزراعية والغذاء بكميات وفيرة وتنظيمه، يمثلان أهم شروط قيام الحضارة، فالزراعة هي خطوة سابقة لكل ما حققته الحضارة الإنسانية من إنجازات، وارتباط الزراعة بالاستقرار هو أهم أسباب المضي قدماً للأمام، وبفضل الزراعة تمكّن الإنسان من الاستقرار وتكريس وقته وإمكاناته في تشييد المدن والممالك والامبراطوريات، وإبداع الفنون والآداب، والتفكّر في الأمور الدينية. وكان لسورية دور الريادة عالمياً في تطوير مناهج علمية للزراعة، ترتكز على عدة عناصر رئيسية، أهمها أنظمة متطورة لتناوب المحاصيل، ودرجة عالية من التطوّر في تقنيات الري، وإدخال مجموعة كبيرة ومتنوعة من المحاصيل التي تمت دراستها وتصنيفها تبعاً للموسم ونوع الأرض وكمية المياه التي تحتاج إليها ❖

بقلم:

د. محمود السيد - المديرية العامة للآثار والمتاحف

والإعلامي محمد عماد الدغلي